لماذا لا يتحرك يوثانت او غيره لمساعدة روحي الخطيب ، أمين القدس ، على سبيل المثال ، للعودة الى وطنه ؟ علما بأن الاسرائيليين ابعدوه في ١٩٦٨ ، كما أن عائلته تعيش في فلسطين وفي القدس منذ حوالي ٨٠٠ عام . او تلك العائلة التي تقطن في مخيم الوحدات في الاردن وارتني صورة منزلهم في حيفا ، لماذا لا يساعدهم احد على العودة الى وطنهم ؟ وفي حين أنه ربما يكون للمواطنين السوفيات الذين يطالبون بالهجرة الى فلسطين صلة بفلسطين منذ الفي سنة او يزيد ولا يكون ، وبكل تأكيد ليس صلة قريبة ، نرى ان لعائلة أمين القدس او لتلك العائلة من حيفا « جذورا » في فلسطين . ولكن بعد مرور ٢٣ سنة من التشريد أصبح الفلسطينيون على يقين رغم صدور ما يزيد على ٤٠ قرارا من الامم المتحدة حول حق الشعب الفلسطيني في العودة الى بلاده ، ان الامم المتحدة لا تنوي تنفيذ هذه القرارات او « مساعدة » الفلسطينيين في العودة الى بلادهم . وكذلك اصبح واضحا ان أية دولة عربية ليست اليوم او غدا على استعداد لتكرار تعهدها بأن « هدفنا الاول هو استعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . » فقد أصبح هذا مجرد شعار للاستهلاك يجد حيزا له في كل خطاب او بيان او اتفاقية تتعلق بالشرق الاوسط . ولم يعد يثير اهتمام الفلسطينيين او غيرهم من العرب . وهكذا نرى ان الفلسطينيين باتوا يرددون بكل كآبة : « اننا وحيدون ، والعالم كله يقف ضدنا ، بمن في ذلك أشقاؤنا العرب . لذلك يجب ان نحارب لوحدنا . » ومع هذا ليس بالضرورة أن تعكس هذه الجملة الواقعية اعتقاد الفلسطينيين الراسخ بالوحدة . فرغم النكسات والفشل والخيانات والدروس القاسية من الماضي ، كثيرا ما يأمل الفلسطينيون في أن يهب احد الانظمة العربية الى تقديم نوع من المساندة الحقيقية والخالصة لحركة التحرير . وانهم ما يزالون يشعرون بحاجة وبرغبة الى زعيم يكون بمثابة الاب لهم . فحتى رغم النكسات التي منى بها جمال عبد الناصر في ١٩٥٦ و١٩٦٧ ظلت الجماهير الفلسطينية تعتبره بمثابة الزعيم الاب الذي سيهب لانقاذها ، بأي شكل من الاشكال .

ومن المشاهد المؤثرة حقا التي شهدها المرء في مخيمات اللاجئين المنكوبة في الاردن في اعقاب هجمة أيلول ١٩٧٠ منظر آلاف الاعلام السوداء التي كانت تخفق فوق الاكواخ المخربة او المهدمة . فمن قلب المأساة التي كان الفلسطينيون لا يزالون يعيشونها ومن جحيم الالم الذي كانوا يعانون منه وهم يدفنون موتاهم ويعالجون جرحاهم ويبحثون عن ذويهم المفقودين ويحاولون اعادة نوع من النظام الى حياتهم المحطمة ، وجدوا متسعا من الوقت ليبكوا زعيمهم الراحل ويرفعوا تلك الاعلام السوداء الصغيرة تعبيرا عن حزنهم وحبهم العميق له .

وكل هذا يؤكد أنه بمرور الذكرى الرابعة والخمسين لوعد بلفور يعيش الفلسطينيون في عزلة لم يعرفوها من قبل . وعدا عن الاسباب المعروفة ، فان احد اسباب ذلك هو أن الدول العربية الاخرى ألفت نفسها تواجه المشكلة ذاتها وهي تحرير أراضيها هي . فبالنسبة لمصر فهي منهمكة بمواجهة المشاكل السياسية الداخلية واعادة تنظيم الدولة والانفتاح على العالم الخارجي ومحاولة جذب رؤوس الاموال والسياح من الخارج وخوض معارك على الصعيدين الديبلوماسي لاعادة فتح قناة السويس لتوجد لنفسها موطىء قدم على الضفة الشرقية للقناة . وكذلك فالاردن منهمك ايضا بقضاياه الداخلية وباعادة الحالة الاقتصادية الى وضعها السابق وكسر الطوق العربي من حوله وحماية العرش الهاشمي من اخصامه الفلسطينيين . وقد قال عدد من الزعماء العرب مؤخرا ان الاردن يقف « خارج المعركة مع اسرائيل » فهو منهمك بتعزيز انتصاره على الفدائيين واعادة صورته الى وضعها الطبيعي . أما بالنسبة لسورية ولبنان فهما البلدان الوحيدان في المنطقة حيث لا يزال الفدائيون يتمتعون بدرجة من الحصانة ، وبالاضافة لذلك كله ، فان حركة المقاومة الفلسطينية منقسمة على نفسها ، اما لاسباب عقائدية ليست في طبيعتها قابلة للانقسام ، واما لان الفلسطينيين ، كغيرهم من غالبية الشعب العربي ، اعتادوا ، عبر تاريخ طويل من الاحتلال الاجنبي والانظمة القمعية ، على عدم الثقة بأحد ، وعلى أن يقعوا فريسة سهلة للاشاعات والاقاويل . ولسوء الطالع ، هناك جماعات عدة ، او كما يسمونهم « مراكز قوى » تعمل على اضعاف حركة المقاومة عن طريق « الحرب النفسية » ونشر الاقاويل والاشاعات عن مختلف افراد وفصائل حركة المقاومة .

والتفكير بكل هذه الامور : بوضع الفلسطينيين ، وشكوكهم ومخاوفهم ، يدفع المرء كما يفعل